مما خطيئتهم أغرقوا

أيها الإخوة المسلمون عباد الله، إن ما تمر به بلادنا في هذه الأيام من كرب وبلاء، بل وجميع الدول الإسلامية، بل قل: والعربية والأجنبية، أمر عظيم لابد له من وقفة تأمل وتدبر، وقفة محاسبة.

في هذه الأيام الأخيرة كثر البلاء في بلادنا وتراكم فوق ما كان قبله؛ غلو في الأسعار عجيب، انتشار الأمراض والأوبئة، فساد أهم أصناف الطعام في البلاد، وأكبر هذه الابتلاءات الاستهزاء بالرسول الكريم محمد ﷺ.

إن المسلم حين يتفكر ويتدبر في هذا عليه أن يعرف أنه كمسلم عليه أن يرد كل هذا لله سبحانه وتعالى فإن كل شيء له سبحانه.

فالله هو الذي يُجري هذه الابتلاءات بحكمته سبحانه، ولن يُفعَل ذلك إلا بحكمة، فإن الله لا يُجري الأمور هزوًا ولا لعبًا، فإن كان الأمر كذلك عباد الله فعلى المسلم أن يتعامل مع هذه الابتلاءات على ثلاثة محاور، وهذه المحاور هي:

أولًا: معرفة أن هذه ابتلاءات من عند الله لحكمة جليلة.

ثانيًا: علاج الخلل.

ثالثًا: التحصين لعدم وقوع مثل هذا، ولا يتأتى هذا إلا بالتدبر.

المحور الأول:

أن هذا بلاء من عند الله لحكمة، والبلاء يستوجب الصبر، والاحتساب، والرضا؛ لأنه من عند الله، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وكيف نصبر فكان الرد الإلهي: ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ** ﴾ [البقرة: ٤٥] فلنصبر ولنحتسب ولنعلم أن هذا تكفير عن الخطايا يقول ﷺ: (**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**)[1]، فعلينا عباد الله أن نعلم أن كل هذا بإذن الله ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [التغابن: ١١]، ولْنثبت ولا يخرجنا هذا الضيق وهذا الكرب عن إيماننا، بل نثْبت، ونرضى، ونراجع أنفسنا، ونفعل كما

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٥٦٤١) واللفظ له، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٥٧٣).

أمر ربنا، وأن نستعين بالصبر والصلاة، فالصبر ذكره الله سبحانه وتعالى أكثر من تسعين موضعًا في القرآن، وهذا يدل على عظم الصبر.

المحور الثاني: علاج الخلل

ويكون ذلك بالتوكل على الله سبحانه وتعالى في كشف الكرب فهو سبحانه القادر على ذلك: ﴿ **قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٣)** ﴾ [الأنعام: ٦٣]، والتوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة.

فلنتوكل على الله في رفع هذا البلاء ولنستعين به، يقول ﷺ: (**إِذَا سَأَلْتَ؛ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ؛ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**)[1]، فلنتوكل على الله سبحانه وتعالى لعلنا نتقرب إليه، فإنه خبير بما نصنع، ثم نأخذ بالأسباب.

والأخذ بالأسباب عباد الله أمر يسير بتوازٍ مع التوكل على الله سبحانه وتعالى، وقد أوضح ذلك جليًا النبي ﷺ عندما قال للذي أراد أن يتوكل على الله ولا يربط الناقة ظانًا منه أن هذا يكفي: (**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**)[2]، والأخذ بالأسباب من الدين ما دام أنه لا يحلل حرامًا أو يحرم حلالًا، ففي المرض مثلا، يذهب المريض إلى الطبيب المختص ليجري الكشف عليه ويحدد له الدواء، يقول تعالى: ﴿ **فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧)** ﴾ [الأنبياء: ٧]، فهذا هو الأخذ بالأسباب، ومن هذه الأسباب أيضًا أن يرقي المريض نفسه، ويدعو الله سبحانه وتعالى أن يشفيه، فكل هذه أسباب يقرها الشرع.

ثانيًا: لابد وأن يفقه المسلم هدي النبي ﷺ؛ فالتوكل مع الأخذ بالأسباب في آن واحد طريقة بديعة اختصرها ﷺ في حديثين:

أولهما عندما قال ﷺ: (**لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ**)[3]، بهذا الحديث بَيَّن النبي ﷺ أنه لا عدوى، أي: أن

---

[1] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (٢٥١٦)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٥١٦).

[2] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (٢٥١٧)، وحسنه الألباني رحمه لله في صحيح الترمذي (٢٥١٧).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٥٧٠٧)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٢٢٠).

العدوى لا تنتقل بنفسها من مريض إلى آخر، ثم قال ﷺ: **(وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ)**[1]، أي: اتركه وابتعد عنه كما تبتعد عن الأسد حتى لا يفترسك، فمن مجموع الحديثين نصل إلى أنك تعتقد بقلبك أن المرض لا ينتقل من تلقاء نفسه، ولكن ينتقل إذا أراد الله أن ينتقل، وهذا هو التوكل على الله، وعلينا أن نأخذ بالأسباب ونحصن أنفسنا من كل بلاء بأن نعالجه.

المحور الثالث:

تدبر ما حدث من بلاء لنتعظ، فنسأل أنفسنا: ما سبب كل هذا الفساد؟ فساد في المصالح الحكومية، في الشوارع، في البيوت، في الطعام، في الشراب، فقد ظهر الفساد في كل مجالات حياتنا، فما سبب هذا؟

إن هذا الفساد كله إنما له سبب واحد، ألا وهو: المعاصي والبعد عن الطريق المستقيم

إذا وجهت هذا السؤال إلى العلمانيين، الذين يسمون أنفسهم بالمثقفين، وهم -والله الذي لا إله غيره- هم المخربون المفسدون، أو وجهته إلى العصاة والفاسقين، فهؤلاء لا يعترفون بذلك، بل يربطون كل مصيبة بسبب عندهم؛ هروبًا من الحقيقة، فإن حدث الزلزال؛ قالوا ظواهر كونية، وإذا حدثت الفيضانات؛ قالوا أمور طبيعية، وإذا حدث الوباء والأمراض؛ قالوا خلل في الوقاية، وهكذا يخالفون الله، ويخالفون دينه، ويخالفون آياته المبينات.

أما القوي العزيز فيقول عن هذا الفساد: ﴿ **ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾** ﴾ [الروم: ٤١]، آية واحدة فيها الداء، وفيها سببه، وفيها العلاج، فالداء: هو الفساد بشتى أنواعه، وسبب هذا الفساد: بما كسبت أيدي الناس؛ بسبب الزنا، والعهر، والفجور، والخمور، بسبب الرشاوي، والفساد، والنفاق، والعمالة، بسبب التسيب، والتبرج.

وعلاج ذلك كله: أن نرجع إلى دين الله سبحانه وتعالى

فلما امتلأت الأرض بالربا وقد حذر الله من هذا قائلًا: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾** ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩]، كانت المعركة معه سبحانه،

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٥٧٠٧).

حرب من الله علينا بسبب هذا الربا، ومن يستطيع أن يصمد أمامه سبحانه وتعالى؟!!

لما كثرت الرشاوي؛ كثرت اللعن، فقد لعن الله الراشي والمرتشي، وهكذا عباد الله فالأمر واضح، يقول تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا ﴾ [نوح: ٢٥]، فالأمر بيِّن، كل ما نراه من مرض، فساد، وباء، خوف، ذل، كل ذلك بسبب تركنا للطاعات، وبعدنا عن رب الأرض والسماوات.

كنا أمة قوية/ يوم كان القرآن هاديًا للشباب، هاديًا للصواب يستذل الصعاب، كانت أمة في ليلها عابدة، وفي نهارها صائمة مجاهدة، فقد صدق الله القائل: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩ ﴾ [النساء: ٧٩].

والسؤال الآن: ماذا فعلنا عندما أصابنا الله بهذه الابتلاءات؟ هل رجعنا إلى الله؟ هل تبنا إلى الله؟ لا وبكل أسف، مازلنا كما نحن، وننسى الأحداث، ونرجع إلى معاصينا ولهونا، ويعلم ذلك جيدًا كل إنسان حتى أعدائنا.

سئل مناحم بيجن عن ضرب المفاعل النووي في العراق، قال: أعتقد أنهم سيتكلمون كثيرًا، ثم سرعان ما ينسون، وقد صدق وهو كذوب.

فقد أخذت فلسطين وسيطر اليهود، ومازلنا في لهونا ولعبنا

يعبثون في المسجد الأقصى، والمسلمون يقيمون حفلات الرقص والمجون

نهبت أفغانستان، والمسلمون غارقون في الخمر والمخدرات

احتلت العراق وقتل أبناؤها، والمسلمون يتعاملون في الربا

انتهكت الأعراض في سجن أبي غريب عيانًا بيانًا، والرشاوي مستمرة، والنفاق وسوء الأخلاق

أرسل إلينا الجبار زلزالًا هز الأرض، فقمنا بتكريم الممثلين والممثلات، والراقصين والراقصات

غرقت السفن سفينة تلو سفينة إهمالًا وخيانة، ومات الآلاف، ونحن مع الأفلام والمسلسلات مع الفاسقين والفاسقات

انتشرت الأمراض، والسرطانات، والفشل الكلوي، والكبد الوبائي، والمسلمات على رمال المصايف عرايا بجوارهم أزواجهم المسلمون

أرسل الله الوباء في الطيور أهم طعام للفقير والمتوسط والغني، ومازالت المقاهي مزدحمة بالمدخنين المضيعين لأعمارهم المشاهدين للعرايا في إعلامنا الفاسد

أهين نبينا ﷺ، فصفقنا فرحين بانتصاراتنا في كرة القدم

هؤلاء هم نحن عباد الله، حقيقة يعلمها كل واحد منا.

ماذا ننتظر بعد كل هذه الإنذارات التي أرسلها لنا الله سبحانه وتعالى؟

علموا عباد الله أن سنة الله الكونية هي: أولًا يرسل الإنذارات والبلاء، ثم نسقط من عينه جل شأنه، فيكون العقاب.

أنسينا الفساد الذي وصلت إليه لبنان، وماذا كان في بيروت، ثم أخذها الله، فما زالت في حروب وبلاءات.

أنسينا العراق وما وصل إليه من فساد، ثم أخذها الله قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ١٠٢**﴾[هود: ١٠٢]، ولا يغرنكم أننا نصلي أو فينا بعض الصالحين، فقد دخل رسول الله ﷺ على السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها قائلًا:(**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا، فَقَالَتْ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ، قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**)[1].

فكل منا عباد الله مسئول أمام الله، ولا تزر وازرة وزر أخرى، فلنرجع إلى الله ولنرجع إلى نهج رسول الله ﷺ، ولا تقل ماذا أصنع وحدي وقد كثر الفساد؟ اعلم أن الله سائلك أنت: ماذا أجبت المرسلين؟ ماذا فعلت بشرعه؟ فافعل ما تستطيع، واعلم أن الفرج مع الصبر، وأن مع العسر يسرا.

لابد من التوبة والإنابة، فمثلًا موقف المسلم مع هذه الرسومات التي كانت على رسول الله ﷺ، هل يكفي أن نتظاهر ثم كل منا يرجع إلى حياته، إلى مقهاه، إلى لهوه وغفلته؟!!

لا، عباد الله، ما فعل ذلك الصحابة رضي الله عنهم معه ﷺ، كانوا يحبونه أشد الحب، فها هو خبيب رضي الله عنه عندما حكم عليه المشركون بالقتل (**فَقَالُوا: أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا مَكَانَكَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنِّي فِي أَهْلِي وَوَلَدِي وَأَنَّ مُحَمَّدًا شِيكَ بِشَوْكَةٍ**)[2]، هذا هو الحب، فقد نصره الله سبحانه وتعالى بهم، وها هو بلال

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٣٤٦)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٨٨٠).

[2] حلية الأولياء (٢٤٦/١)، لأبي نعيم رحمه الله.

رضي الله عنه وهو في فراش موته (**قَالَتِ امْرَاتُه: وَاحُزْنَاه، فَقَالَ رضي الله عنه لَهَا: بَلْ وَاطَرَبَاه؛ غَدًا أَلْقَى الأَحِبَّة، محَمَّدًا وَحِزْبَه**)[1].

إلا تنصروه فقد نصره الله، فالله ناصره وقد نصره

ماذا فعلنا نحن؟ حتى الكلاب نصرت نبينا صلى الله عليه وسلم وبذلت وسعها

فها هو ابن حجر العسقلاني رحمه الله يسطر في كتابه: (**أَن بعض أُمَرَاء الْمغول تنصر، فَحَضَرَ عِنْده جمَاعَة من كبار النَّصَارَى والمغول، فَجعل وَاحِد مِنْهُم ينتقص النَّبِي صلى الله عليه وسلم، وَهُنَاكَ كلب صيد مربوط، فَلَمَّا أَكثر من ذَلِك؛ وثب عَلَيْهِ الْكَلْب، فخمشه، فخلصوه مِنْهُ، وَقَالَ بعض من حضر: هَذَا بكلامك فِي مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: كلا، بل هَذَا الْكَلْب عَزِيز النَّفس، ورآني أُشير بيَدي، فَظن أَنِّي أُرِيد أَن أضربه، ثمَّ عَاد إِلَى مَا كَانَ فِيهِ فَأَطَال، فَوَثَبَ الْكَلْب مرّة أُخْرَى، فَقبض على زردمته، فقلعها، فَمَاتَ من حِينه، فَأسلم بِسَبَب ذَلِك نَحْو أَرْبَعِينَ ألفا**)[2].

عباد الله ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾[التوبة: ٤٠].

فنصرة نبينا صلى الله عليه وسلم برجوعنا إلى ربنا سبحانه وتعالى، والعمل بالقرآن، وتعلم سنته صلى الله عليه وسلم.

نصرة نبينا بتحكيم شرع ربنا فينا.

نصرة نبينا ببناء مجتمعنا بناء قويا حتى نرد كيد الكائدين

---

[1] الشفا بتعريف حقوق المصطفي (٥٣/٢)، للقاضي عياض رحمه الله.

[2] الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١٥٣/١)، لابن حجر رحمه الله.